

اسم صاحب الرسالة : السيد جمال مصطفى سالم
الأستاذ المشرف : الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
عنوان الرسالة : الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥
الدرجة : الدكتوراه مع درجة الشرف الأولى

يعد موضوع « الفتح العثماني الأول لليمن ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » من أهم الموضوعات في تاريخ اليمن الحديث والمعاصر لأنه يتناول فترة زمنية تضمنت الجذور الأساسية لهذا التاريخ ، كما تمخضت عن نتائج هامة أثرت في تاريخ البلاد حتى أيامنا هذه . كذلك احتاج هذا الموضوع الى معالجة خاصة ، نظرا لطبيعته من ناحية ، ولطبيعة مراجعه من ناحية أخرى . اذ أنه من الموضوعات التي تتصف بأنها موضوعات سياسية ، غير أنه في نفس الوقت من الموضوعات التي لا يمكن معالجتها دون اللجوء الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية التي تساعد على تفسير الأحداث السياسية ، أو بالأحرى التي ترتبط بها في وحدة متكاملة . ونظرا لطول الفترة التي يعالجها هذا الموضوع من الناحية الزمنية ، فقد رأيت أن أقسمه الى مراحل زمنية قصيرة نسبيا تتضمن كل منها فترة محددة وموضوعا قائما بذاته ، لذلك لم تكن هذه المراحل متساوية من الناحية الزمنية . وترجع أهمية هذا التقسيم الى أنه أتاح الفرصة لتعميق دراسة كل مرحلة على حدة ، مع توضيح جميع نواحيها المختلفة ، وان كان هذا لم يتعارض مع ربط جميع هذه المراحل مع بعضها البعض . ومن ناحية المراجع ، فقد اتضح أثرها بشكل كبير على طبيعة الموضوع ، اذ تميزت هذه المراجع - وعلى رأسها مجموعة المخطوطات التي اعتمدت عليها صفة رئيسية - بغزارة مادتها في بعض النواحي ، وقالها المؤلف في النواحي الأخرى ، وذلك الى جانب تناقض مادتها مع بعضها البعض ، وتعدد وجهات نظرها ، مع تميز مواقفها . غير أن طبيعة مراجع الرسالة - وخاصة الأصلية منها - هي التي زادت من أهمية موضوع الدراسة ، وجعلته يتصف بالأصالة .

قسم المؤلف الرسالة الى تمهيد وتسعة فصول . وقد دعت الحاجة الى هذا التمهيد ، وهو بعنوان « اليمن عند بداية القرن السادس عشر الميلادي » حتى أركز به دراسة الطبيعة البشرية في اليمن ، وأثر هذه النواحي على الحياة

الاجتماعية ، وعلى التطور التاريخي به ، وذلك مع التركيز على دراسة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية عند بداية القرن السادس عشر الميلادى حتى تتضح الأوضاع التى واجهت العثمانيين فى اليمن عند مجيئهم اليه . وقد اتضح هنا كيف أثرت ظروف اليمن الطبيعية وخاصة من ناحية التضاريس التى يغلب عليها الطابع الجبلى ، ومن ناحية الموقع الاستراتيجى الهام ، على النواحي البشرية والاجتماعية والاقتصادية فى اليمن ، وقد أكد المؤلف ذلك فى العرض السريع لتطور تاريخ اليمن ، وذلك قبل أن أقف عند دراسة حكم أسرة الظاهريين به وهى التى عاصرت بداية ذلك القرن .

وقد درس المؤلف فى الفصل الأول ، وهو بعنوان : « الغزو البرتغالى والجهود العربية المضادة ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ » ، العوامل المختلفة التى أدت فيما بعد الى فتح العثمانيين لليمن . ولذلك اهتمت بدراسة حركة الكشف البحرية البرتغالية ونجاحها فى الوصول الى الهند بحرا عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ونجاح البرتغاليين بالتالى فى تحويل التجارة الشرقية الى هذا الطريق الجديد ، وذلك بعد أن هاجموا السفن والسواحل العربية والاسلامية لتحطيم سيطرة العرب والمسلمين على هذه التجارة . ومن ناحية أخرى تنبعت جهود هؤلاء الآخرين بما فى ذلك سلاطين اليمن لصد الغزو البرتغالى عن تجارتهم وسواحلهم ، وقد ظهر هنا أن المماليك فى مصر هم الذين تحملوا العبء الأكبر فى الوقوف أمام البرتغاليين ، غير أن جهودهم باءت بالفشل . وقد انتهى الصراع المملوكى البرتغالى الى استيلاء المماليك على ساحل تهامة اليمن لاتخاذها قاعدة أمامية للدفاع عن سواحل البحر الأحمر ، وللانطلاق منه لمحاربة البرتغاليين فى الهند والمحيط الهندى . وقد انتهت الحرب بين المماليك والظاهريين فى اليمن الى سقوط هذه الأسرة التى كانت آخر الأسر السنية الحاكمة فى اليمن . وقد سقط الحكم المملوكى فى مصر فى نفس الوقت ، ودخلت مصر والشام والحجاز فى حوزة العثمانيين ، فاضرت القوة المملوكية فى اليمن الى الاعتراف بالسيادة العثمانية عليها .

وتناول المؤلف فى الفصل الثانى تحول السيادة الاسمية للعثمانيين فى اليمن الى سيادة فعلية ، ولذلك سميته « الفتح العثمانى لسواحل اليمن » ، ١٥١٧ - ١٥٣٨ . وكان خضوع مصر وبالتالى سواحل البحر الأحمر لسيطرة

العثمانيين قد أدى الى اصطدامهم المباشر البرتغاليين ، والى قيام التسابق بينهما من أجل الاستيلاء على المواقع الاستراتيجية في البحر الأحمر وعلى السواحل العربية الجنوبية أو على ساحل أفريقية الشرقى . وقد أهتم العثمانيون في الحقيقة بالمعركة الدائرة مع البرتغاليين في البحار العربية الجنوبية ، وإن كان استعدادهم لهذه المعركة قد تأخر بعض الشيء لانشغالهم في جهات أخرى متعددة في أوروبا وضد فارس . وقد ظهر اهتمام العثمانيين بمحاربة البرتغاليين في اعداد حملة سليمان باشا الحادم التي ذهبت الى الهند في سنة ١٥٣٨ م للقضاء على نفوذهم هناك وعلى احتكارهم للتجارة الشرقية . وقد فشلت تلك الحملة البحرية في تحقيق غرضها في الهند ولكنها نجحت في فتح عدن ، وفي القضاء على قوة المماليك في زبيد وتهامة ، وفي تدعيم السيطرة العثمانية في باقى أنحاء البحر الأحمر . وفي هذا الفصل اهتمت دراسة نشاط البرتغاليين البحرى في هذه الفترة ، فأوضحت كيف تمكنوا من التوغل الى داخل البحر الأحمر حتى هاجموا جدة ، وكيف نجحوا ، اقامة العلاقات القوية مع الحبشة ، وذلك حتى تتضح حقيقة جهود العثمانيين للوقوف ضد الخطر البرتغالى .

وتناول المؤلف في الفصل الثالث ، وهو بعنوان « الفتح العثمانى الأول لليمن ، ١٥٣٨ — ١٥٥٥ م » ، خطوات العثمانيين لبسط سيطرتهم على أقاليم اليمن الداخلية ، ونجاحهم في ذلك في عهد أزدمر باشا رابع الولاة العثمانيين في اليمن . وكن من المتوقع أن يقع الصدام بين العثمانيين والزيديين بزعامة الامام شرف الدين الذى كان قد نجح في بسط سيطرته على جميع أقاليم اليمن الداخلية ، وذلك أثناء الصدام الذى دار بينه وبين المماليك وبقايا الطاهريين قبل قدوم العثمانيين الى اليمن . ويرجع النجاح الذى حققه العثمانيون في اليمن حينذاك الى قوتهم العسكرية والى تفكك جبهة الزيديين . وقد برز في أثناء هذا الصدام شخصية المطهر ابن الامام شرف الدين ، وخاصة بعد أن تمكن من الصمود امام قوات ازدمر باشا أثناء محاصرته لحصن ثلاء ، حتى أجبر العثمانيين على عقد الصلح معه ، واحتفظ بممتلكاته الخاصة مقابل اعترافه بالخضوع للسيطرة العثمانية .

ولم تستقر السيطرة العثمانية في اليمن طويلا بعد عزل ازدمر باشا ، اذ فقد العثمانيون ممتلكاتهم في اليمن بما في ذلك عدن ، ولم يبق بأيديهم سوى « زبيد » وما حولها من الأراضى التهامية .

وقد عالج الفصل الرابع وهو بعنوان « تدهور السيطرة العثمانية ، ١٥٥٦ — ١٥٦٨ » ، العوامل المختلفة التي أدت الى انهيار هذه السيطرة ، والتي كان منها وصول بعض الولاة الضعفاء الفاسدين الى حكم اليمن نتيجة وجود بعض الاضطراب في نظم الدولة العثمانية وأجهزتها منذ أواخر عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦ م) . ومن ناحية أخرى ، كان وجود المطهر على رأس الزيديين من أهم العوامل التي أدت الى سرعة انهيار السيطرة العثمانية حينذاك ، فقد نجح بفضل حنكته السياسية ومهارته الحربية في جميع الفئات اليمنية حوله ، وفي احراز الانتصارات المتتالية ضد القوات العثمانية حتى توقفت قواته أخيرا أمام صمود العثمانيين في « زيد » . وفي هذا الفصل حرصت على ابراز العوامل السياسية والاجتماعية والاقتصادية المختلفة التي كانت تؤدي الى تدمير اليمنيين من الحكم العثماني وثورتهم عليه .

أما الفصل الخامس فقد تناول فترة قصيرة نسبيا لأن المؤلف ركز الحديث فيه عن أعمال حملة سنان باشا لاستعادة ممتلكات العثمانيين في اليمن من أيدي الزيديين بزعامة المطهر . ونظرا لأهمية هذه الحملة في تاريخ اليمن الحديث وأهمية أعمالها ، فقد استعرت تعبير أحد المعاصرين وقتذاك عند حديثه عن هذه الحملة وجعلته عنوانا للفصل وهو « الفتح العثماني الثاني لليمن ، ١٥٦٩ — ١٥٧١ م » . وقد تتبعت في هذا الفصل خطوات سنان باشا في اليمن بشيء من التفصيل حتى أبرز العوامل الطبيعية والبشرية التي تساعد اليمنيين على الثورة ، وعلى الوقوف دائما في وجه السلطة المركزية في البلاد ، والتي كانت تعوق في نفس الوقت تقدم الجيوش النظامية في المناطق اليمنية وخاصة المناطق الشمالية . وأخيرا ، فقد نجح سنان باشا الى حد كبير في اخضاع اليمن ثانية للسيطرة العثمانية ، رغم اضطراره الى عقد الصلح مع المطهر ، وبقاء الأخير في ممتلكاته مع اعترافه الخضوع للسيطرة العثمانية .

وفي الفصل السادس وهو بعنوان « عهد توطيد السيطرة العثمانية في اليمن ، ١٥٧١ — ١٦٠٧ م » عرض المؤلف أعمال الولاة السياسية والحربية لاكمال أعمال حملة سنان باشا في اليمن ، حتى تم للعثمانيين توطيد سيطرتهم الى حد كبير (١٦)

به ، وخاصة في عهد آخر ولاية هذه الفترة حسن باشا الذي امتدت ولايته الى خمسة وعشرون عاما . وقد ظهر في هذا الفصل أهمية العامل السياسي في تثبيت أقدام العثمانيين في اليمن ، فالى جانب اعتماد العثمانيين على قوتهم العسكرية ، فقد لجأ هؤلاء الولاة الى الأساليب السياسية المختلفة لنشر العدل ولتقريب الأهالى اليهم . كذلك كانت وفاة المطهر الى جانب تنازع أبنائه فيما بينهم من أهم العوامل التي أدت الى نجاح العثمانيين في توطيد سيطرتهم في تلك الفترة . غير أن هذا النجاح لايعنى استقرار الأحوال تماما في اليمن حينذاك ، اذ استمر قيام الثورات في أقاليم اليمن المختلفة نظرا لضعف الأحوال الاقتصادية بها ، أو لشدة وطأة العثمانيين عليها ، مما كان يجبر العثمانيين على ارسال الحملات تلك الأقاليم لاختاد الثورات بها .

وقد أشار المؤلف في نهاية هذا اشارة سريعة الى بداية ثورة القاسم ونجاح حسن باشا في اخمادها مؤقتا نظرا لقوة قبضة العثمانيين على زمام الأمور في اليمن ، وذلك لأننى فصلت الحديث عن هذه الثورة في فصل خاص هو الفصل السابع وعنوانه « ثورة امام القاسم وخروج العثمانيين من اليمن ، ١٥٩٧ - ١٦٣٥ م » . وقد تناولت في هذا الفصل اسباب ثورة الامام القاسم من حيث شدة وطأة الحكم العثماني على اليمنيين ، وفساد بعض الولاة والعمال والجنود ، وازدياد قوة الامامة الزيدية وقدرتها على جميع الأهالى حولها ، كما تناولت من ناحية أخرى ماحل هذه الثورة في أثناء حياة الامام القاسم ، ثم في حياة ابنه الامام المؤيد وذلك حتى تم خروج العثمانيين من اليمن في عام ١٦٣٥ م . وقد اتضح هنا كيف أدى اضطراب شئون الدولة العثمانية في ذلك الوقت الى انشغالها عن اليمن ، والى اهمال ارسال النجيدات الى ولايتهم به ، بل والى الانصراف عن استعادته حينذاك عندما خرج من أيديهم . كذلك اتضح هنا أيضا أن حروب الامام القاسم ضد العثمانيين هي التي أكدت سيطرة الزيديين في اليمن ، وأن هذا هو الذي ساعدهم على تولي زمام الأمور في البلاد بعد خروج العثمانيين منها ، وان كان هذا لاكان هذا لاينفى دور أسرة الامام شرف الدين - وعلى رأسهم المطهر - في توحيد السيطرة الزيدية في اليمن .

أما الفصل الثامن وهو بعنوان « النشاط العثماني في البحار العربية الجنوبية ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ م » فقد تحدث المؤلف عن جهود العثمانيين البحرية أثناء وجودهم

في اليمن ضد البرتغاليين ، فأوضح كيف نجحوا في حماية سواحل البحر الأحمر ، وفي منع البرتغاليين من التغول الى داخله . وكان البرتغاليون قد استطاعوا في سنة ١٥٤١ م الوصول الى الطور استعداد المهاجمة الأسطول العثماني في السويس ، فدفع هذا العثمانيين على زيادة قوتهم البحرية في البحر الأحمر ، وعلى تقوية سيطرتهم في اليمن . وفي نفس الوقت حاول العثمانيون تطهير السواحل العربية الجنوبية من الخليج العربي من الجنوب البرتغالية المتناثرة بها ، فأرسلوا حملة بحرية الى هذه السواحل ولكنها لم تستطع أن تحقق نجاحا هاما . غير أن نجاح العثمانيين البحري كان قد تأكد في جنوبى البحر الأحمر ، اذ منعوا البرتغاليين من دخوله ، كما قطعوا طرق الاتصال بين البرتغاليين وحلفائهم الأحباس مما قضى على آمالهم في التعاون لغزو العالم العربي ومهاجمة الحرمين الشريفين . وقد اتضح ضعف السيطرة البحرية في البحار العربية الجنوبية تبعا لضعف البرية العثمانية العامة في البحر المتوسط ، فاقترص نشاطهم البحري على مناطق محدودة أمام السواحل اليمنية والسواحل الأفريقية القريبة منها . ولقد كان ضعف البحرية البرتغالية آنذاك من العوامل الهامة التى ساعدت العثمانيين على عدم التمسك بالبقاء في اليمن عندما أجبرهم اليمنيون على الخروج منه .

أما الفصل التاسع والأخير ، وهو بعنوان « اليمن تحت الحكم العثماني ، ١٥٣٨ - ١٦٣٥ » فهو مخصص لدراسة الأوضاع الادارية والاقتصادية والاجتماعية في اليمن أثناء الحكم العثماني له . وقد تعرضت للنواحي الايجابية والنواحي السلبية في حكم العثمانيين لليمن حتى تتضح الجوانب المختلفة للحياة هناك في ذلك الوقت . وقد ربطت في هذا الفصل بين نظم الحكم في اليمن ونظم الحكم في الدولة العثمانية العامة ، وذلك اعتبار أن اليمن كان ولاية عثمانية حينذاك ، فساعد هذا على ابراز الخصائص المحلية لليمن ، التى جعلته يتميز بوضعه الخاص في داخل الامبراطورية العثمانية .

وأخيرا فقد حرصت على وضع ثلاثة ملاحق في نهاية الرسالة ، أولها قائمة بأسماء السلاطين الذين عاصروا الفتح العثماني الأول لليمن ، وثانيها قائمة بأسماء الولاة الذين حكموا اليمن في تلك الفترة ومدد حكمهم ، وثالثها قائمة بأسماء أهم الأئمة الزيديين الذين ظهروا آنذاك . كذلك حرصت على كتابة بعض الملاحظات الخاصة بمراجع الرسالة حتى أشير الى بعض نواحي أهميتها .